مخيم جنين في التاريخ الشفوي

مراجعة:روز شوملي
بقلم غير معرف .

التعبير عن النكبة يأخذ أشكالاً مختلفة، والتأريخ للنكبة يأخذ أيضاً أشكالاً مختلفة. وكي يكتسب التأريخ للنكبة بعده الثقافي والاجتماعي، يصبح تعبير الأفراد هاماً في رسم ملامح التاريخ الحقيقي للشعب من خلال ما تحمله الذاكرة من أحداث وتفاصيل قبل حدوث النكبة. وهنا يكتسب التاريخ الشفوي للحكاية الفلسطينية أهمية خاصة، لأنه يشكل الذاكرة الجماعية للشعب.
التأريخ الشفوي ليست فكرة جديدة، فقد بدأ العمل بها كمؤسسة، مركز المعلومات العربي للفنون الشعبية في بيروت منذ 1992 آذار. وقد ساهم بعض الأفراد مثل السيدة روز ماري صايغ فيما كتبته عن فلسطينيي مخيمات لبنان، ومن خلال ما أجرته من مقابلات مع النساء منذ بداية الثمانينات، في لفت النظر إلى جوانب هامة من تاريخ وثقافة الشعب الفلسطيني تم تجاهلها في مرحلة النضال الوطني. وينطبق مثل هذا الكلام على بيان نويهض الحوت التي اعتمدت التأريخ الشفوي منهجاً رئيسياً في أطروحتها المشهورة، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين 1917-1948.
ولكن تجربة مركز المعلومات العربي للفنون الشعبية في بيروت تتميز بمحاولة مأسسة الفكرة، والتوعية بأهميتها ومن خلال تدريب كادر يقوم بجمع المعلومات أو من خلال التعبئة على أهمية التأريخ الشفوي، من خلال مجلة الجنى التي تعنى بالتراث الشعبي والتاريخ الشفوي.
وكم سرني أن التأريخ الشفوي في لبنان ترافق مع التأريخ الشفوي في فلسطين، وكأن هذا البعد الجديد في تسجيل التاريخ لبى حاجةً عند الشعب الفلسطيني كي يكتب تاريخه الفعلي، في الداخل والخارج. وسرني أيضاً هذا التشبيك بين المؤسسات العاملة في هذا المجال، في داخل الوطن من جهة، ومع خارجه من جهة أخرى، كي تجمع جهودها معاً، وبالتالي تصل إلى ذاكرة جمعية هي أكبر بكثير من الحكايات المنفردة، على رغم أهمية هذه الحكايات.
في كل لقاء لي مع الصديقة لينا الجيوسي، كان موضوع التاريخ الشفوي للشعب الفلسطيني يشكل موضوعاً أساسياً في أحاديثنا. وكان هاجسها دائماً أن نسجل الحكايات قبل فوات الأوان. وقد كان لهذا الهاجس دور في تطوير برنامج التاريخ الشفوي الفلسطيني لمؤسسة مركز اللاجئين والشتات الفلسطيني – شمل.
ولأن النكبات تتواصل مع تواصل وتصعيد الهجمة الصهيونية للاستيلاء على الأرض وتهجير أهلها منها، وحرمانهم من العودة إليها، كان التعبير عن النكبة تعبيراً عن العلاقة بالأرض، وبالتفاصيل التي تعكس الحياة اليومية ضمن مرحلة معينة، على هذه الأرض. ولأن الأرض كانت ولا تزال وسيلة إنتاج أساسية في فلسطين، فإن الحرمان منها يعني الحرمان من الإنتاج الأساسي، وبالتالي فإن الاستقرار الاقتصادي الذي وفرته الأرض يصبح في خبر كان. ومن يراجع الأمثلة الشعبية والعادات والتقاليد يجد مقدار ما تتأثر البنى الفوقية في العلاقة بالأرض، ويدرك ما قد يعنيه الحرمان منها.. ومن هنا، فإن تسجيل ما تبقى في ذاكرة من عاصروا النكبات وعاشوا اللجوء مسألة في غاية الأهمية، لأنها لا تشكل فقط نافذة على مرحلة معينة، وعلى الثقافة والعلاقات الاجتماعية في تلك المرحلة، ولكنها تفسر كيف استطاعت الذاكرة الجمعية في الشتات أن تحل محل الأرض، وكأن هذه الذاكرة أصبحت هي حدود الوطن .
ولأن النكبات توالت، وما زالت تتوالى على الشعب الفلسطيني، فإن التوثيق ضروري ليس فقط لمرحلة ما قبل النكبة، بل للنكبات التي تلت نكبة سنة 1948، وبخاصة تلك التي رافقت تجربة اللجوء.
وضمن هذا السياق يأتي كتاب "الأرض في ذاكرة الفلسطينيين" الذي صدر حديثاً عن مركز شمل في رام الله في هذا العام. والكتاب هو الأول من سلسلة التاريخ الشفوي الفلسطيني من إعداد الكاتب عبد الفتاح القلقيلي، والذي اعتمد على التاريخ الشفوي الذي تم تسجيله في مخيم جنين اثر اجتياح المخيم في نيسان 2002 وبعد لجوء سكانه إلى تجمعات جديدة بعد أن دمر معظمه •. وقد قام مركز شمل بتفريغ 100 مقابلة، استخدم الكاتب نحو نصفها في الوصول إلى الاستنتاجات المتعلقة بالأرض في ذاكرة الفلسطينيين.
يبدأ الكتاب بتمهيد من مركز شمل، ومقدمة من قبل الكاتب، ويمتد الكتاب على مدار 192 صفحة. أما التمهيد الذي بدأ به الكتاب فقد أعدته الدكتورة لينا الجيوسي مع الدكتور ساري حنفي مدير مركز شمل، حول سلسلة التاريخ الشفوي الذي كان هذا الكتاب باكورتها. كما عرج التمهيد على المحاولات التي قام بها مركز شمل من محاولة التأسيس لذاكرة جمعية تساعد على توليد تاريخ اجتماعي فلسطيني جاد، كان ذلك من خلال الدراسات التي تقوم بها المؤسسة، من حيث دراسة نقل تجربة الأباء والأجداد لأبنائهم وأحفادهم، أو من خلال مقارنة ما يتم جمعه مع المصادر الموجودة للتاريخ. كما عرف التمهيد بمجالات عمل المركز الأخرى والتي ينوي المركز القيام بها من أجل جعل المعلومات التي يتم جمعها في متناول العموم.

أما مقدمة الكاتب، فقد اهتمت بتوضيح المصطلحات حيث ميزت بين تدوين الشفاهة والتأريخ الشفوي. فالتدوين هو كل استطلاعات الرأي على الاستمارات المكتوبة، والتي تعبأ كتابياً، وكل المقابلات بالصوت أو الصوت والصورة لتعبأ كتابياً فيما بعد، أما التأريخ الشفوي فهو تدوين الرواية الشفوية عن أحداث قديمة حيث يكون ما بقي منها في ذاكرته، أو الصورة الحالية لها في ذاكرته، جزءاً من الذاكرة الجماعية أو ما يمكن أن تكون. وهذه الذاكرة الجماعية هي إحدى مكونات ثقافة ذلك المجتمع. ويستعرض الكاتب الأدبيات المختلفة حول موضوعة التاريخ الشفوي مضمناً ما جاء من مراجع عربية أو غربية. وفي اختياره لموضوع الكتاب، يبرز الكاتب مفهوماً مركباً للأرض، فهي أرض وناس بكل ما لهم من علاقات مع الأرض، وفيما بينهم. وهي في ذاكرة الفلسطيني تعني الوطن.

ويتضمن الكتاب أربعة فصول: الفصل الأول يتناول مفهوم الأرض عند الفلسطينيين وعند اليهود. الأرض للفلسطيني مقدسة لسببين: لأن الله باركها، وجعلها مهبط الرسل، ومسرى آخرهم (محمد صلى الله عليه وسلم) والثاني لأنها مجبولة بدماء الشهداء المدافعين عنها كونها تعرضت لغزوات كثيرة ومتتالية. وقد عقد الكاتب مقارنة مع شهادات الذين تضمنتهم المقابلات وكان هناك تقديس للأرض واعتبارها كالعرض من حيث الحفاظ عليها.

أما عند اليهود فإن الأرض تعتبر جزءاً من الثالوث : الأرض والشعب وحلول الإله أو الدين. وقد اعتبر سفر التكوين الأرض من النيل للفرات. أما الصهيونية فقد اعتبرت أرض فلسطين هي أرض الميعاد.

وفي الفصل الثاني، يبحث الكاتب مسألة الأرض باعتبارها أساس الصراع بين الفلسطينيين والحركة الصهيونية، ويستعرض الإحتلالات الثلاثة المختلفة للأرض الفلسطينية. الاحتلال التركي، والانتداب البريطاني، والاستيطان الصهيوني. وينقسم هذا الفصل إلى ثلاثة أقسام هامة: القسم الأول يتعرض للقوانين التي رافقت كل احتلال، ودورها في تحديد ملكية الأرض ونقلها أو مصادرتها، ويتطرق هذا الجزء إلى الدور الذي لعبه الانتداب البريطاني في تسهيل مصادرة الأرض من خلال القوانين. وفي هذا الفصل أيضا، تدعم شهادات المبحوثين والمبحوثات السياق التاريخي للاستيلاء على الأرض من خلال القوانين التي سنتها فيما يتعلق باستملاك الأراضي، ومصادرتها. وباستثناء مبحوثَين، فقد أشار كل المبحوثين والمبحوثات إلى الدور الخطير الذي لعبته بريطانيا في مصادرة الأرض ونقلها إلى اليهود.

والقسم الثاني من الفصل الثاني يستعرض محاولات الاستيلاء على الأرض والتصدي لها بخاصة ما قبل الحرب العالمية الثانية، وما بعدها، وما قبل سنة 1947، وما بعدها.

أما القسم الثالث من الفصل الثاني فيتناول الواقع الفلسطيني الذي نجم عن اقتلاع الفلسطينيين من أرضهم، ويتناول الكاتب الحلول المطروحة لمشكلة اللاجئين.

أما الفصل الثالث فيتناول، من خلال ذاكرة الرواة، الذاكرة الشعبية الفلسطينية لمخيم جنين. وقد تناول الكاتب 47 رواية من الروايات المجمعة. حيث أدلى الباحثون والباحثات بمعلومات حول أسباب النزوح، وقد كان الخوف سبباً لنحو 86.5% منهم في الهجرة، ونحو 13.5% منهم بسبب الطلب منهم بالرحيل أما من قبل اليهود أو من قبل جهات عربية.

ويستعرض الكاتب في هذا القسم أيضاً الدور الذي لعبته الأمم المتحدة والقرارات التي أصدرتها من أجل التوطين والتعويض والتي رفضها الفلسطينيون. وظل خيار العودة هو الخيار الوحيد المقبول. وفي هذا السياق، عبر المبحوثون والمبحوثات عن أهمية العودة للأرض وأن لا بديل عنها. كما عبر أحدهم عن أن قرار العودة هو حق مقدس لا مجال للمساومة عليه.

كما يتحدث الفصل المذكور عن مكونات الذاكرة الشعبية للأرض ويركز على ما أجادت به ذاكرة الرواة من مخيم جنين. ويستعرض الكاتب في هذا الفصل دور الذاكرة الجماعية في إعادة تشكيل الماضي المشترك لسكان المخيم، وكيف أصبحت فلسطين بعد الهجرة بيتاً وحقلاً وذكريات طفولة. وتنتقي الذاكرة العادات والتقاليد، لحظات الفرح في رسم ذكريات الوطن قبل الهجرة.

وفي هذا الفصل تتضح صورة القرية في ذاكرة الفلسطيني وقوة انتمائه لها، وقد تكون هي المكون الأهم في تشكيل هويته. ورغم هجرة الفلاحين من قراهم، إلا أنهم لا يزالون يعرفون أنفسهم على أساس قراهم، وكثيراً ما كانت التحالفات أو المشاحنات ترتبط بهذا الإنتماء، كما هو الحال في بعض مخيمات لبنان، وهذا ما أشارت إليه أيضاً الباحثة روز ماري صايغ في المقابلات التي قامت بها في مخيمات لبنان. والانتماء للقرية يظهر أيضا من خلال اللهجة، ومن خلال المكان الجغرافي للعائلات. وربما كان أهم تأثير بينته المقابلات علاقة الأرض وتأثيرها في الثقافة. فنظراً لأن الأرض تعتبر مصدر الإنتاج الأساسي، تجد أن الثقافة التي يحملها المبحوثون والمبحوثات تتمحور أساساً حول علاقات الإنتاج بالأرض. وعلى سبيل المثال كانت الإجابات حول دور الإقطاعيين، دقيقة، على عكس المواضيع الأخرى التي لم يكن لها علاقة بالأرض. يتذكر المبحوثون والمبحوثات أيامهم الحلوة في قراهم، وهي الثابت لهم، وكل مكان سكنوه تم التعبير عنه وكأنه شيء مؤقت، وزائل. بالرغم من أنهم أحياناً لا يتذكرون شيئاً سوى أن أيامهم في هذه القرى كانت حلوة، وهذه الذكرى هي ما تجعلهم يرنون إلى قراهم بأمل في العودة. وكان تعبيرهم عن الوضع المؤقت لهم "إذا قعدنا هالجمعة، مش قاعدين الجمعة الجاية".

وفي الفصل الرابع، نصان لمقابلتين: واحدة مع جمال الشاتي وهو عضو مجلس تشريعي، والثانية مع أحد المدافعين عن المخيم لم يذكر اسمه لأسباب أمنية. وهما نموذجان للأسلوب الذي استخدم في جمع البيانات.
وينتهي الكتاب بخمسة ملاحق: الملحق الأول عبارة عن جدول بالمستوطنات الزراعية الجماعية (الكيبوتسات). الملحق الثاني عبارة عن جدول بالمستوطنات الزراعية التعاونية (الموشافيم). أما الملحق الثالث، فهو عبارة عن جدول بالمستوطنات التعاونية الجماعية (الموشاف شيتوفي) وتعطي الجداول معلومات عن المستوطنات من حيث الموقع، تاريخ الإنشاء، الجهة التي قامت بالإنشاء، وعدد السكان حتى نهاية 1972 . أما الملحقان الرابع والخامس، فعبارة عن نصي قرار رقم 194 و 273 الصادرين عن الجمعية العامة للأمم المتحدة، الأول بتاريخ 1948/12/11، والثاني بتاريخ 11/ 1949/5.
ترى ماذا يمكن أن يقول إدوارد سعيد لو أنه معنا اليوم ليرى الفلسطينيين وهو يروون حكاياتهم، وهو الذي قال في واحدة من مقابلاته، "إن آخر ما يود الفلسطينيون فعله هو رواية حكاياتهم. إنهم يريدون مجرد البقاء. إن مشكلة البقاء كبيرة جداً لديهم، حيث لا يتسنى للفلسطيني التفكير في سرد الحكايات، بل اجتياز يومه إلى اليوم التالي. يصح هذا الأمر في الضفة الغربية وقطاع غزة، وفي أي مكان آخر يكونون فيه عرضة للتمييز والاضطهاد".
"الأرض في ذاكرة الفلسطينيين" كتاب يتناول إشكالية الأرض انطلاقاً من مشروع التاريخ الشفوي في مخيم جنين، ومقارنته بالتاريخ المكتوب، كخطوة على الطريق للوصول إلى سيرة واحدة للتطورات الثقافية والاجتماعية للشعب الفلسطيني في أماكن تواجده من أجل تشكيل الذاكرة الجمعية للشعب الفلسطيني.

الهوامش:

- نفذ مركز شمل المشروع بالتعاون مع اللجنة المحلية للمعاقين في مخيم جنين بدعم من مشروع التدخل وقت الأزمات للصندوق الألماني المدار من قبل مؤسسة فريدريك نيومان في القدس.